

أموت كما ينتظرون . إن الردهة تملأ الشمس ساعة الظهيرة . صحيح أنها برهة عابوة ، وان الردهة ليست أكثر من فسحة تتسع لخطوتين ، ولكن ما علاقة ذلك بما يقولون ؟ هذا من الله .

عندما ماتت « عيوش » كان الأمر مختلف . فهي منذ ان ولدت ، كانت ساحبة ، ضعيفة البنية . وإني لأذكر يوم اكتشفنا في منديلها دمًا ، كيف ذعرنا جميعاً ، وصمنا ان نكتم الخبر فيما بيننا فلا يشيع في الحي . ولكن أي انسان في مثل هذه الجحور المتراكبة كان يستطيع ان يتنفس ، فلا يلتقط أنفاسه جار يشاركه الجدار ؟

في اليوم التالي سمعت « محمد يونس » يسألني وهو واقف على باب الدكان :

— كيف صحة اختك ؟

من اخبره بذلك ؟ ولماذا هذا الفضول ؟. كدت اثور في وجهه وأفهمه ان اختي ليست مريضة ، وأن المريض هو واحد مثله لا هم له إلا التدخل في شؤون الآخرين . كان عمرها قد انتهى . هذه حقيقة لا جدال فيها . ومع ذلك فمن

اين لنا ان نرسلها إلى لبنان ؟ كانت تسعل من الصباح حتى المساء ، ونحن نراقبها مستسلمين ، وأما تدعو لها على اثر كل صلاة . ولكن ابي كان يهز رأسه كمن يرى الغيب مرسوماً على جدار البيت القائم . وعندما حملناها الى المقبرة ، من كان يظن ان الحي كله سوف يمشي وراءها ؟ لقد كانت عيوش مريضة في كل بيت كما يظهر . وعندما حملت متاعها الاخير الابيض ورحلت عن بيت اهلها كانت كأنها قد تركت نفس الوجوم في كل عين . كانوا ينتظرون اخبارها ابدًا ، ويسألونني عنها ، وكنت أعرف ان أكثرهم كان يسألني خائفاً ، كأن العدوى لن تنسرب إلا الى صدره الخرب .

أما احمد ، فانه اصيب شاباً . انا لا أستطيع ان انكر ذلك . ولكن من يدري مع ذلك من اين اتته العلة ، ولماذا يجزمون بهذا السبب الواهي ؟ يا لله .. لن انسى ابدأ تلك الايام وإن اوغلت في السنين .

انا احب السباحة على الشاطئ الذي يقابل « أرواد »

مباشرة . فهناك يمتد الرمل الذي احب . وهناك كنت أمضي واحمد في ايام الصيف اللاهبة ، نخلع ملابسنا ، ونجعلها كومتين متلاصقتين فوق كل واحدة حجر يمنعها من التبثر إذا ما هبّ الهواء . كنا نختلط دائماً بأترابنا من شباب الحي أو رفاق السوق ، ونخوض اليمّ عابثين . وكان منا من يتحدى الآخرين في المضي نحو « الزيرة » والعودة فوراً بعد شرب فنجان من القهوة بين الصيادين الذين يرفون شبابهم على شاطئ الجزيرة الشرقي . لكم كان احمد يهوى هذا السباق . كأنما هو على موعد أبدي مع الاعماق السوداء يستشقهها وهو يناضل بذراعين لا تعباً ونفس لا يلهث . كانوا كلهم يعرفونه حتى « قوطوش » الأعمى ، فقد كان يصرخ باسمه كلما سمع ضربة يده على سطح الماء :

— احمد خريبات .. تعال استرح الى جوارى ..

هذه السمكة التي كانت تحير الماء ، هي نفسها التي وقفت

ذات اصيل كالذهب ، على

الشاطئ الرهلي ، يتقرز منها

الجميع ، ولا يجسر ان يقترب

منها انسان إلا انا . لم يكن

اخي فحسب ، فأنا لا أومن

بالعدوى كما يتصورون ، فهاقد

عشت معه سنتين بعد مرضه فلم تخترق صدري سبعة واحدة .

كنا نذهب الى الشاطئ ، فأرى بوضوح ان رفاقنا يبتعدون

في حذق ، وبالرغم من انني كنت أراه يتجرد امامي كل يوم

تقريباً ، فقد كنت في تلك اللحظات ، عندما تقف وحيداً على

الرمال وقد بدأت نخلع ثيابنا ، لا أملك إلا ان ادير عنه وجهي

وهو ينزع قميصه الداخلي عن صدره . لم يكن باستطاعتي ان

انظر ببساطة الى هذا الجسد الذي اعرفه اكثر من كل الناس

في الماضي القريب جسداً كخشب السنديان صلابته وامتلاء

وبريقاً ، يصبح الآن قفصاً متخلّصاً من العظام . ومع ذلك

فكان يرفض إلا ان نذهب للبحر . ايها الماء .. ايها الماء ..

لكم كنت عزاءنا في تلك الايام !

مات احمد في احد فصول الصيف القاسية . احمد .. ثم تلته

عيوش .. كانت عيناً تلك التي اصابتنا ولا ريب ، عيناً حسوداً

كالخرز ، تثقب الجدران وترانا شباباً هائثين ، ممتلئين صحة

وعافية !



هذه تجديفة بتمل شوقي بغدادي

ولكن الناس بدأوا ينصرفون عن اخبارنا الى اخبار اخرى فان بيت « عرفان » ظهر فيه المرض ، ووقع ابنهم الاكبر فريسة السلّ ، ثم مات بعد نصف عام . كنت أعرف الميت . فقد كان يعمل مع ابيه مثلي ، وكان يسبق دائماً أباه في فتح الدكان ، فأراه كل صباح قادماً من بعيد ، يلف اذنيه بوشاح قذر حتى في ايام تموز . لقد كان مريضاً منذ ان خلقته امه ، وليس السل أبداً هو الذي نقل مثواه إلى مقبرة البلدة .

وأقننا ذات صباح على خبر جديد من هذا النوع . بيت « ابو البالات » أيضاً . ثم ظهر في بيت « محمد افندي يعرب » مع انه يقع في طرف الحي المشمس . فما دخل الشمس في الموضوع ! وهكذا سكت الموت عنا كأنه شغل هؤلاء . ولكن امي كانت في ذعر دائم ، فان كل سعة كانت تفسرها انها نذر العلة المميتة ، وكل بصقة في عينها تخالطها خيوط حمر . لقد كان الموت يعيش معنا ، يمد فراشاً بيننا على الحصور ، ويفتح عيوننا صباحاً مع عيوننا ويجلس بيننا على الطعام يأكل في صحوننا . كنا نتنفسه في الغرف ، والردهة وعلى السلم ، وفي الزقاق ، وفي انفاس الجيران ، وروائح البالوعات المفتوحة الاطراف كبطن منفوخ مشقوق ، وفي سواقي الماء التي تتلوى في وسط الازقة حتى في صميم هاجرة الصيف ، يمرح فوقها الهوام ويعوص فيها اطفال الحي بارجلهم الخافية .

في تلك الايام ، عندما سكن الداء أكثر من رثة واحدة ، بدأت حارتنا تصبح على كل لسان . وصرت أسمع اهل البلدة اينما توجهت يتحدثون عن ذلك الحي الذي لا تدخله الشمس ، وعن وجوه سكانه ، وجوهنا ، تلك السحنات الضاوية ذات السمرة القاتمة ، وكنت أسمع من يتحدثون منهم فيلبس مسوح الطبيب المتحضر ليقول :

- طبعاً .. البيت الذي تدخله الشمس لا يلججه طبيب .. الشمس ! أبداً هذا الكوكب المتألق يعلقوننا اليه في كل أزمة . ويردف آخر فيقول :

- لقد سمعت ان الحكومة سوف تهدم هذا الحي ..

عدت في ذلك اليوم الى البيت وقد ملأت رأسي أفكار غريبة جديدة . كنت ناقماً على احد الناس ، ولكنني لا أعرف من هو ، فلعلني كنت إياه ، لأنني لم أرد على اولئك المروجين الاديعاء ، ولكنني مع ذلك ، وقفت لأول مرة في حياتي في رأس الزقاق الذي تبدأ به الحارة حيث أدخل دائماً ، وفي ظل

السور الاثري العملاق الذي يحد حارتنا من الشمال . وحلالي ان اتلى المشهد الذي كان يقع امامي .

لم يسبق لي ابدأً ان وقفت مثل هذه الوقفة كي انظر إلى هذا المكان الذي تعيش فيه . ولو سئلت مرة : صف لنا الزقاق الذي تعيش فيه ! لأعوزني التفاصيل الباهرة ، وإن كانت كل خطوة من هذا الزقاق محفورة في دماغي . كان يجوز ان انسى ذكرها إذا أردت وصف المكان ، ولكنني في صميم الليالي المعتمة ، عندما لا يضيء لي الطريق شيء سوى غريزي وتعودي كنت أتقل خطوة طويلة فوق البالوعة التي تعترض الزقاق . وكنت لا اخطيء في ذلك ابدأً . إن الذي يقطن في بيت عالٍ قد يجهل عدد درجات السلم ، ولكنه يعرف دائماً وهو يرقاه في الليل بلا ضوء ، انه يجب ان يلتصق بالجدار عند بعض الدرجات وأن يدوس برأس قدمه فوق بعض الدرجات الاخرى ، ثم يثبت قدميه في ثثة على العتبة الاخيرة :

في ذلك اليوم ، وقفت في فم الزقاق ، كساكن ذلك البيت العالي ، وقد حللاه أن يحصي عدد درجات السلم الذي يصعد عليه كل يوم عشرات المرات .

كانت البيوت كأنما قُدت احجارها جمعاء من مقلع واحد فهي رملية متبرّثة خالية من الدهان ، ضيقة كججور الفئران ، متلاصقة ، متراكبة كعلب الورق المقوّى ، معتمة كبعض الزرائب والاسطبلات المحفورة في السور الاثري الذي ينتصب شامخاً فوق حيينا منذ مئات السنين . لون واحد هو الذي كان يصبغ كل هذه الدور ، لون الرمل الاصفر المحروق . وعندما بزغ لي فيجأة وجه بنت عابرة ، ظهر لي كأنما هو حجرة اقتلعت من احد الجدران . نفس اللون الذي كان يصبغ الدور المتراكبة كان يصبغ وجوهنا ، مثل فئران الحقول التي تتلون بلون الارض التي تعيش عليها .

كانت كل البيوت تتشابه في مظهرها الخارجي والداخلي على السواء : عتبة صغيرة فيها ثقب تخرج منه المياه القدرة إلى الزقاق ، وباب خشبي منحور ، لو دقت فيه مسامراً إلى نهايته لاستطعت باصبعين ان تسجبه من ثناياه . وكانت معظم البيوت تبدأ من الداخل بفسحة صغيرة قد لا يتجاوز عرضها الذراع في بعض الاحيان ، ثم غرفة إلى اليمين لها طاقة قرب السقف تطل على غرفة ثانية يتسرب اليها هواء الزقاق من طاقة اخرى عالية وبدأت احدد وانا في موقعي مكان شروق الشمس كأنني

ولكنهم لم يدخلوا ، وإنما اكتفوا بنظرات فاحصة طويلة إلى جوازه ثم انصرفوا .

مرّ بعد ذلك اليوم زمن طويل ، كدنا ننسى فيه انهم حضروا حقاً . حتى لقد دفعني الفضول ذات يوم إلى ان اذهب للسراي فأسأل احد موظفي البلدية عما قرره ، فأجابني :

— سوف يأتون . . . سوف يأتون . . .

ولكن متى يأتون حقاً ؟ كنا ننتظرهم جميعاً . وفي ليالي الصيف المقمرة ، كنت اسمع صوت النساء الساهرات يصل إلي واضحاً وأنا قابع في الردهة مع ابي نختلس بارقة من الكوكب المتألق . ومن خلال السر كان يطلع فجأة صوت يسأل :

— ترى متى سوف يحضرون ؟

ثم يرين الصمت ، فأتخيلن يتطلعن إلى السطوح الغارقة تحت النور ، المتصلة كأنها سطح واحد ، حتى ليستطيع احدنا ان يزور آخر بيت في الزقاق دون ان ينزل إلى الارض . ثم تقول اخرى :

— اذا هدموا بيوتنا فلسوف يعطوننا بيوتاً اخرى .

ولكن كان من الصعب ان تتصور انفسنا في بيوت اخرى ، ثم اسمع صوت خديجة :

— يُقال انهم سوف يبنون لنا بيوتاً عند اطراف البلدة . . . في الرمل . . . قرب الثكنة العسكرية . . .

اذن يريدون ان يرمونا في ذلك العراء ؟! ألا تبتأ لهؤلاء ، يقررون مصائرنا دون ان يقيموا لآرائنا وزناً !

واخيراً جاؤوا . وكمن يتطلع الى فرجة نادرة مسلية وقد على الحي أناس من جميع الاحياء الاخرى يشاهدون زوال قسم من مدينتهم . اما نحن سكان الحي ، فقد كنا نشاهد العمال من نوافذنا ، يبدأون بيت «عرفان» الذين تم ترحيلهم قبل اسبوع . ولقد انسى كل شيء ، الا هذا المشهد ، يوم بدأت بعض الطنابرو الصغيرة تتسلل في الزقاق تحمل اثاث البيت القليل ، ويخرج وراءها الاولاد ، وكل يحمل حاجة وهم يقفزون فرحين .

تمّ ذلك في نصف نهار . وعندما خرج الأب . والأم اخيراً وراء آخر طنبر ، بكت الام ، فزجرها زوجها ، ودفعها بيده دفعة خفيفة خجلة ، ثم أسرع في سيوره ، فاضطرت المرأة لأن تتبعه وهي تسوي من حجابها ، متعثرةً بلاءتها السوداء . وداعاً يا جيران . . . وداعاً . . . وإن لم أقلها لكم جهاراً في ذلك اليوم . ولكنكم تعرفون واثقين ان مئات القلوب كانت

اتصور الزاوية التي يمكن ان يتسرب منها الشعاع إلى بيوتنا ، فأراني عاجزاً عن التصور . ثم تخيلها عالية في كبد السماء . في تلك اللحظة كنت اذكر مرورها العابر في ردهتنا الصغيرة ، وبعد ذلك ظل وظلام مستمران ، كنا نشعل قناديلنا مبكرين كثيراً ، فاذا كانت الشمس لم تغب في حساب الزمن وواقع الاحياء الاخرى من المدينة ، فانها كانت في واقعنا وحسابنا غاربة منذ ان تميل في قبة السماء قليلاً نحو الاقنق الغربي . منذ تلك اللحظة كان الليل يبتدىء عندها .

كان الوقت ظهراً ، وكانت هناك طفلتان تلهوان على مبعده بشيء لم اتبينه فوق التراب ، وسمعت صوت امرأة تنادي باحد الاسماء ، ثم تطلق دعاء ناقماً إلى الله ، تذكرت ان امي في هذه اللحظة لا بد انها في المطبخ تثرثر وخديجة وتخوضان في حديث لا ينتهي عن أشياء كثيرة خفية لا ندرکہا نحن الرجال . كنت قد تركت مكاني واتجهت نحو البيت ، ومع ذلك فقد كنت احب هذا المكان . اما ان يمرض الناس فيه ويموتوا ، فهذه اشياء اخرى فوق مقدرتنا ، لا نفهمها .

دفعت باب بيتنا بقدمي :

— اين انت يا أم ؟ في المطبخ ؟ ماذا سنأكل اليوم ؟

ولكنني لم البث ان فقدت هزة المرح هذه بعد دقائق ، فلم اكد انتهي من طعامي حتى اسندت ظهري الى الجدار وقلت :

— إن الحكومة سوف تهدم الحارة كلها . . .

رفعت اختي صوتاً كالشهب ، وشجب وجه امي كصباح اليوم الذي ماتت فيه عيوش . لم اكن متأكداً ولكنني لا ادري لماذا وجد هذا الخبر مكاناً سحيقاً في نفسي منذ ان سمعت احدهم يلغظ به في البلدة . إنهم يستطيعون ذلك بكل بساطة ، انا اعرف انهم يكرهوننا ، واننا في حسابناهم لا نملأ فراغاً في حياتهم ، فلتسمح هذه القذارة من على وجه الارض .

كنت اعرف انهم قادمون يجتربون ، ولكنني لم اتصور ان يأتوا بمثل هذه السرعة ، كنا في الدكان عندما سمعنا بجبرهم ، ارسلني ابي إلى البيت كي استقبلهم وبقي وحده في الدكان . وهناك رأيتهم في الزقاق . كانوا ثلاثة يرافقه دركيان ، يتطلعون إلى البيوت من الخارج ، وقد يدخلون لبضع ثوان ثم يخرجون عجلين كمن يمد يده في وكر ثم يحس فجأة بوخزة وحشية في اصابعه . ليتهم دخلوا بيتنا ؛ اذن لاريتهم كيف ان بعض البيوت في حيّنا المريض ، الذي يحسونه احلى بما يتصورون ،

بعد الحرب العالمية
الاولى ، حينما قامت معركة
الادب بين القديم والجديد
كان الذي أثارها رغبة
المجددين في مصر في تسهيل
اساليب الكتابة، ولم يكن

نحو التجديد الصحيح

بقلم عيسى الساعودي

لهم من الأهداف الحيوية ابعدهم من ذلك ، الا لدى الاقلين .
فغاية التجديد عندهم كانت تقف عند حدود العبارة واللفظة ،
ولكنها لم تكن ترمي الى مسيطرة الحياة وتطور المجتمع ، ولم
تكن تهدف الى ترقية الشعب واستحثائه للنهوض . ولذلك
رأينا الادب المصري - على الاخص - يدور في حلقة مفرغة
من الدراسات القديمة ، او التحقيقات والشروح للكتب القديمة ،
وكانت عناصر « الابداع » فيه - على اقلام دعاة التجديد -
أضال من ان ترى بالعين المجردة . فأنت ترى ان زعيم دعاة
التجديد في مصر - الدكتور طه حسين - لم يزد في عنفوان
ثورته التجديدية على ان انصرف الى الادب القديم ، يشك في

بعضه ، ويستنتج الآراء في
بعضه ، ويهدم بعضه ، ويقم
انقاض بعضه ، فرأينا هؤلاء
في الادب الجاهلي ، فيثير
الدنيا على رأسه ، ثم يؤلف
في أبي العلاء المعري ، وابن
خلدون ، والمنتبي ، ولا يزيد في دروسه الجامعية ومؤلفاته الادبية
على هذا النوع من التجديد . ومثل ذلك ما فعله المازني والعقاد
مثلاً ، في: حصاد المهشم ، وقبض الريح ، وابن الرومي ، وساعات
بين الكتب ، وأمثالها . فاذا سألتهم : وأين حظ الحياة والشعب
والمجتمع العربي - او على الاقل المصري - من هذه الدروس
والتأليف ؟ فكأنما تلح على شفاههم بسمة اشفاق .. من هذا
السؤال الذي لعلهم كانوا لا يعتبرونه من خصائص الادب ،
ولا من واجبات الأديب .

واما الذين لم يُعرفوا في القديم من دعاة الثورة التجديدية
او الذين ساروا على نهجهم من بعدهم ، فقد اغرقوا في الابتعاد

ميتون . فاذا عاد العمال ذات يوم الى حيننا فلسوف استقبل
معاولهم بصدري قبل ان ادعهم يمسون جدران بيتنا
بضربة واحدة .

كانت أمي تقول : « احذر من أن تمرض يا بني » ولكن
ماذا أصنع ، أنا لن أموت كما ينظرون ، ان الردهة تملؤها
الشمس كما يتمنون ، وهذه السعلات البسيطة التي تهز صدري
أحياناً لم تستطع أن تهدم مني شيئاً .

كنت سمعت منذ ايام ان بنت « محمد فريج » مصابة وانها
تموت ببطء . واليوم ، كانت الشمس حادة ، وكنت اقف في
غم الزقاق ارقب الحي كله بعين مجهدة ، وارى الى صبيين ملتصقين
باحد الجدران . قد تعرضا للشمس . وأغلقا عينيها كمن يرفع
وجهه الى السماء مستحماً تحت المطر ، ثم أخذت اسعل بهدوء
سعلات خفيفة متقطعة ، صارت تشتد شيئاً فشيئاً ، فوقفت
دامع العينين احاول ان التقط نفساً من الهواء ، وانا احس ان
صدري يتمزق وان معولاً يفتح في صدري غوراً ، ثم شعرت
انني اريد ان ابصق ، فبصقت ، وكانت تخالط بصقتي خيوط
حمراء . ولكنني كنت واهماً ولا شك ..

شوقي بغدادي

طرطوس

من رابطة الكتاب السوريين

واجفة يوم تركتم الحي الى غير رجعة كأنكم ذهبتُم الى المقبرة .
لقد رأيت بيتكم الجديد في العراء من بعيد كوخاً نائياً منبوذاً
وكان بودي ان آتي فأهنئكم عليه ولكنني لم استطع ان اكذب .
هدم العمال ثلاثة بيوت ، ثم توقفوا ، وبقي الركام مكانه .
ومرّ زمن طويل ظهرت خلاله بعض الاصابات ، ولكن سكان
المدينة رغبوا عن اخبارنا ، كأن موتنا لم يعودوا يذكرونها .
انهم سيموتون ايضاً مثلنا ذات يوم .

ها قد مرّت سنتان تقريباً على هدم بيت « عرفان » ولست
اعرف الآن بالضبط كيف يعيش جيراننا القدماء الآن ، وإن
كنت انتطلع الى كوئهم النائي كلما مررت على الطريق العام
يوم الجمعة في مشوار مسائي . اما الذعر الذي يشغل امي فلم
يهداً ، وأما ابي فما يزال يهز رأسه كمن يرى الغيب مرسوماً
على جدار البيت القائم . ومن حين لآخر ، كان ابي يذكر
الشمس ، وضوء الشمس ، فأصرّ على أسناني . من لي بهذا
القرص ، أنتزعه من قلب السماء وأثبتته في جدار مطبخنا جدوة
لا تخمد . أكان احمد ما نخل عوده ولا مات . أكانت عيوش
ما سعلت من الصبح حتى المساء ثم اختنقت باحدى سعلاتها
ورحلت عن البيت . أكان كل هؤلاء الذين ماتوا ، بقوا على
وجه الأرض يخترقون ازقة الحي كل صباح الى عملهم ! إنهم